فن البنـــاء
عند المصريين والأغريق

بقلم محمد علوى

لا شك أن أهم مظاهر الحضارة الفرعونية هو فن العمارة . ولما كان للدين عند الفراعنة المنزلة العليا نجد أن درجة اهتمامهم به ظهرت جلية فى معابدهم ، وهى أهم ناحيـة ضرب فيها الفنان المصرى بسهم . ولم تـكن مصر هى البلد الوحيد الذى اهتم بأمر المعابد ، فقد تبعها فى ذلك الأغريق أيضا ، وكفاهم فخراً معهد (البارثينون) فى (الاكروبوليس) بأثينا ؛ فلقـــد كان هذا المعبد ولا يزال آية فى الجمال ، أجمع جميع الفنانين على أنه لايوجد له فى العالم مثيل . فقد راعى فيه بانيه خداع النظر فى الأجسام المنظورة فتلافاه بكل الوسائل ، فـكان معبـده أشبه ببلورة طبيعية جميلة . ومع كل ذلك فان الفنان المصرى قد سبق زميـله الاغريقى فى تصميم معبده ؛ فانك اذا وقفت أمام المعبد الاغريقى لاشك تشعر برهبة وذهول . ولـكن هذه الرهبة ليست إلا نتيجة لقوة الجمال وحسن التنسيق ، أو بمعنى أقرب إن تأثير هذا المعبد كتأثير حسناء كملت فيها معانى الجمال . فكأنما فن البناء الاغريقى أراد أن يأسر لب المتعبدين بسلطان الجمال . ولـكن ليس هذا هو الغرض الذى من أجله كلف بتصميم المعبد ، وفى رأيى أن هذا خروج عن الموضوع الدينى ، ولو أنه خروج لم يخل بقيمة المعبد من حيث جماله .

أما المعبد الفرعونى فهو يشعر بالهيبـة والعظمة فالخضوع والرهبة ، ولـكن هذا الخضوع ناشىء عن الشعور بالضعف أمام القوة والرهبة الدينية ، وهذا ما أحسه أنا الآن وأنا بعيد عن البيئة التى كانت تحيط بالمعبد فى حداثته ، وبعيد عن العقيدة الدينية التى كانت تتملك شعور أسلافنا .

إن الفنان المصرى كان أعظم مما نقدره به وأوسع خيالا ، فنراه قد راعى فى معبده صلاحيته للعبادة من جميع النواحى ، فجعله لا يصلح إلا للعبادة ، بل والعبادة لا تصلح أن تقام إلا بين جدرانه . فتصميم المعبد واختيار موقعه فى مكان بعيد عن الحياة المادية الدنيوية ، والبيئة الدينية التى أحاط بها الفنان البارع معبده ، كل هذا يفصل المتعبد عن العالم المادى فيحصر ذهنه فى دائرة روحانية بحتة .

لست أريد أن أحكم على مقدرة هذا المهندس البارع ، بل سأوضح عمله ، وأترك لكم الحكم على كفايته وموهبته

اختار هذا الفنان لجميع معابده أن تقع فى نهاية طريق مستقيم جداً ومتسع ، بحيث ينتهى هذا الطريق بواجهة المعبد الشامخة ، يتوسطها بابه الصغير ، وقد خصص هذا الطريق مهما بلغ طوله ، (وقد يصل الى ثلاثة كيلو مترات) للمعبد فقط ، فلم يسمح بانشاء أى نوع من المصالح أو المبانى على الجانبين ، بل أنشأ على حافتيه وعلى مسافات متساوية تماثيل ضخمة متساوية ومتماثلة لمعبود معروف رأسه رأس كبش ، وجسمه جسم أسد . فتصور تأثير هذين الصنفين من التماثيل المتوازية المتماثلة ، والأفريزين الممتدين بجانبى الطريق ، تلك المستقيمات المتوازية تظهر للرائى كأنها تتقابل وتتجمع فى نقطة واحدة كما تجمع العدسات الأشعة الضوئية فى نقطة واحدة ، وهذه النقطة هنا هى باب المعبد الصغير الذى يظهر عن بعد . وكما أن النظر تقوده تلك المتوازيات الى النقطة ، كذلك يكون التأثير على الأذهان الشاردة ، فهذا يساعدها على أن تتجمع وتتركز فى العبادة . هذا بخلاف ما كان يعتقده الفراعنـة من أن هذا الطريق مقدس لايطؤه غير المطهرين الأبرياء ، وأن تلك التماثيل الجانبية كانت تراقب حركات المارة وأفكارهم طوال الطريق . وكان المصريون يتوجهون الى المعبد تحت هذه التأثيرات فى موكب تتمثل فيـه معانى الخشوع ، يتقدمه غالباً الفرعون وحاشيته ، حتى اذا اقتربوا من المعبد يمرون تحت قوس نصر فخم أشبه ببوابة شامخة يبلغ طولها نحواً من ثمانية وثلاثين متراً فى معابد الـكرنك . فتصور كيف يشعر المار من تلك البوابة بضآلته أمام هذا العلو الشاهق وهو يعتقد أنه بمجرد مروره منها تطهر نفسه مما قد يكون عالقاً بها من الأدران ، فيصبح طاهراً يصلح لأن يقترب من المعبد ، وبعد ذلك يمر الموكب بين مسلتين شاهقتين ، كتب عليهما تاريخ انشاء المعبـد وبعض الرموز التى تمثل شارة المعبود الذى فى المعبد ؛ وهنا يجد الموكب نفسه أمام بناء شامخ مثال للقوة والبطش والجمال ، وهذا هو المعبد ذو الواجهة الجرانيتية

الضخمة التى تتكون من هرمين شاخين ناقصين متقاربين ، يتوسطهما باب المعبد الصغير ، وعلى جانبيه تمثالان عظيمان (يصل طول كل منهما الى عشرين مترا كما فى معبد « أبى سمبل » شمال الشلال الثانى) ، وهذان التمثالان يمثلان فرعون ، ويرى الواقف بباب المعبد عدة أبواب متتالية ومتساوية الاتساع ، تقع جميعها على محور واحد عمودى على الواجهة غالباً ، وقد تصل المسافة بين المدخل والباب الأخير الى ثلثمائة متر ، وهذا الباب الأخير هو باب مخدع الآله الأعظم .

وأول ما يلفت نظر الداخل فى المعبد هو البهو الكبير ذو الاعمدة الضخمة ، وقد بلغت مساحة ذلك البهو الفخم فى معابد الكرنك ثلثمائة متر فى خمسين مترا ، وهذا البهو مسقف بكتل عظيمة من الأحجار يحملها أربعة وثلاثون ومائة عمود ، مصطفة فى ستة عشر صفاً ، وطول أعمدة الوسط منها ثلاثة وعشرون متراً وقطرها ثلاثة أمتار ونصف . فتصور بهواً يحوى هذا العدد من هذه الأعمدة التى بلغ ارتفاع الواحد منها ارتفاع عمارة مكونة من سبع طبقات تقريبا . كيف يكون تأثير مثل هذا البهو الرهيب الفخم فى نفوس المصلين ؟ ألا يمكننا اعتبار هذا البهو رمزاً للقوة والبطش كما أنه مثال العزلة والرهبنة ؟ إن طول قامة البشر فى هذا البهو لا يتجاوز قاعدة العمود . وبين تلك الأعمدة يقوم الشعب بتأدية الصلاة ؛ أما فرعون وحاشيته فيستمرون فى موكبهم مخترقين الردهات والدهاليز حتى يصلوا الى مخدع المعبود ، وهو مظلم لا يصله الضوء إلا من فتحة واحدة فى السقف ، قد وضعت بهندسة خاصة بحيث لا تضىء من المكان سوى تمثال الاله ، حتى يخيل للرائى أنه يشع الضوء من جسمه . وأمام المعبود وتحت قدميه يوجد نضد عظيم من الحجر ليضع عليه فرعون قربانه بين التراتيل والتعاويذ الدينية ذات الأنغام الساحرة الرهيبة .

ولو كانت لى موهبة فى الايضاح أرقى من ذلك لاستطعت أن أضع لكم صورة أقرب للحقيقة للمعبد والدرجة التى وصل اليها من الابداع ، ولكن عظمة ذلك الفن وروعته فوق أن يصفها قلمى الضعيف .

وهنا أقف بسيدى القارئ لأسأله : هل يوجد مكان أنسب لبناء المعبد من المكان الذى اختاره الفنان المصرى ؟ هل يوجد بناء تتمثل فيه معانى القوة والخشوع والرهبة أصلح للعبادة من تصميم هذا الهيكل الفرعونى ؟ وهل يمكن إيجاد بيئة تحيط بالمعبد من الوجهة المعنوية والفنية أقرب للكمال من تلك البيئة التى هيأها هذا الفنان الحاذق ؟ أظن أنه لا يمكن أن نجيب على تلك الأسئلة إلا بالنفى . ولقد أجمع عظماء الفنانين فى العالم على أن المعبد المصرى هو صاحب المنزلة الأولى بين معابد العالم ، واذا أمكن تصور منزلة أسمى من الأولى لكانت هى منزلة معبدنا ، وبالتالى فن عمارتنا الذى نفر ونهرب منه ، ونتناسى منزلته حتى فى هذا العصر الذى هو عصر تجديد وانقلاب ، لم يفكر أحد من كبار الفنانين المصريين فى إحياء هذا الفن الجميل ، أو ادخال روحه فى المنشآت الحديثة ، الا اذا استثنينا بعض الشواذ .

محمد علوى

قسم العمارة — مدرسة الفنون الجميلة العليا

١٠ ـ بين المعرى ودانتى

فى رسالة الغفران والكوميدية المقدسة

بقلم محمود احمد النشوى

تحدثنا معك فى المقال الماضى عن ابن القارح ، وتوسله بالسيدة فاطمة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كان من أمر هذا التوسل والأذن له بدخول الجنة

والآن ماذا صنع ابن القارح ؟ انه تعلق بركاب سيدنا ابراهيم عليه السلام حتى بلغ الصراط ، وأشير اليه بأن اعْبُرْهُ ، فلما وجد نفسه لا يستمسك قالت الزهراء لجارية من جواريها يا فلانة أجيزيه . فجعلت هذه تمارسه وهو يتساقط عن يمين وشمال ، فقال لها : يا هذه ان أردت سلامتى فاستعملى معى قول القائل :

ست إن أعياك أمرى فاحملينى زقفونه

فقالت : وما زقفونه ؟ !

فقال أن يطرح الانسان يديه على كتف الآخر ويمسك بيديه ويحمله وبطنه الى ظهره ، أما سمعت بقول الجلجلول من أهل (كفر طاب)

صلحت حالتى الى الخلف حتى صرت أمشى الى الورى زقفونه